

معاني وأهداف جليلة في فريضة الحج



يقول تعالى: (وَلِلَّهِ الْعِلْمُ السَّاسِرُ حِجُّ الدُّبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) (آل عمران/ 97). الحج هو دورة تربوية تعبوية يختارها الإنسان لنفسه استجابة لأمر الله تعالى في زيارة بيته، وتعظيم شعائره، وتطبيق أوامره كلها طلباً لرضاه تعالى، وهذه الدورة التي تتضمن برموزها المسنونة والتي يُطلبُ فيها العبد امتثالاً لأمر الله تعالى دون تساؤل أو اعتراض، إعداد تربوي، وأخلاقي، واجتماعي، وسياسي، كل ذلك بإطار روحي تعبدي بعيد عن المطالب الذاتية والعناوين الشخصية بروح مجردة عن الرِّياء والسمعة والشهرة خاضعاً خاشعاً متوسلاً إلى الله تعالى أن يقبله في رحابه، ويعفو عن ذنوبه، ويقربه إليه، وبالتالي هي رحلة إلى رب البيت بزيارة البيت والطواف فيه مع ما يبذله من أموال كثيرة في سبيل ذلك.

فعبادة الحج بصيغتها العامة من الأقوال والأفعال التعبديّة التي يمارسها الحاج، حيث توحى للنفس بمعاني كثيرة فتشعرها بجلال الموقف، وروعة الخشوع والعبوديّة في سبحانه، وتزرع فيها مكارم الأخلاق، وتقودها إلى استقامة السلوك، وحسن المعاشرة.

ففي كل فعل، ونداء، ومناجاة في مناسك الحج، رمز يوحى إلى النفس بمعنى، وأداء يعبر عن سرٍّ وغرض تستوجبه النفس في تعاملها معه. فالإحرام، والتلبية، والطواف، والسَّعي، والوقوف بعرفات.. الخ، كلها أفعال ذات مغزى، ومشاعر ذات معنى عميق يجب أن يحسّها الحاج، ويتمثّل معانيها. لذا كانت قيمة الحج التعبديّة، وآثاره التكاملية على النفس والسلوك لا تلتحق بالممارسة الميكانيكية الميتة، والخالية من استلهام المعاني والقيم الكامنة خلف الممارسات الشكلية، بل يحقق الحج أهدافه بوعي الحاج، وتفاعله نفسياً وفكرياً مع كل فعل يقوم به، أو نداء يطلقه، أو مناجاة يردّها، وإلاّ فالحاج سائح يتجوّل في عالم المشاهد والآثار، لم يحقق من أهداف الحج شيئاً، ولم تنطبع على صفحة نفسه منه عبرة.

إنّ بيت الله الحرام هو أوّل بيت وضع للناس.. للناس كافة. وليس لأية شخصية أو نظام أو طائفة

حقّ الأولويّة فيه. الكلّ متساوون فيه، لا فرق بين أهل البادية، وسكنة الصحاري، والقوافل الرحّل، وبين العاكفين في الكعبة، وأبناء المدن، والحكام والمسؤولين. إنّ هذا البيت الكريم وضع للناس، من أجل قيام الناس، ومن أجل النهضة العامّة، والمصالح العامّة لكلّ الناس. إنّّه بيت الناس، فلا يوجد شخص أو فئة أو طائفة أولى بالبيت من بقية الناس، وإنّ الناس قاطبة في مشارق الأرض ومغاربها مكلفون باعتراف الإسلام والاجتماع في هذا البيت الذي وُضع للناس، وزيارته.

إنّ الحج رحلة الروح إلى باريها وخالقها ومليكيها، ولذا أضاف الله تعالى البيت الحرام إلى نفسه فقال عزّ وجلّ: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمِّنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) (البقرة/ 125). وقال تعالى: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) (الحج/ 26). فالحج هجرة إلى الله بكل ما للهجرة من معنى، هجرة نفسية وبدنية متجرداً فيها العبد إلى تعالى ممثلاً لأوامره، طالباً رضاه تاركاً كلّ ما سواه وراء ظهره من مال وولد وملبس ومسكن وموطن وغيرها تقرُّباً إلى تعالى، فما من حركة يتحرّكها الحاج لأداء مناسكه إلّا وفيها إلزام للنفس بالطاعة، والتزام بالامتناع عن المعصية، مثلاً عندما ينوي السفر إلى الحج يصمم على الفرار إلى الله تعالى إيماناً به، والتزاماً بأحكامه، وامتنالاً لأوامره.

إننا يمكن أن نستوحي من شعائر الحج ومناسكه ما يعمق فينا الإيمان بالله تعالى، ويُجذِّره في نفوسنا، ويُحْكِمه في جوارحنا حتى يتحوّل الإيمان إلى غذاء للقلب، ونور للعقل، ومقوم للسلوك، إنّ هذا يتحقق من خلال رحلة الحاج وانتقاله من منسك إلى منسك وهو مُنشِدٌ شعوراً وإحساساً وسلوكاً إلى الله تعالى من خلال استمرارية الذِّكْر لفظياً وذهنياً، بل وحتى سلوكياً.

وفي الحج يتم تداول الآراء العلمية والنظريات الإسلامية بين العلماء، وطُلاب المعرفة حيث تطرح أفكار ورؤى متنوعة بين مختلف الحجاج من جميع الأنحاء، وتدور النقاشات والبحوث العلمية من خلال التقاء أهل العلم والمعرفة من الفقهاء على شكل مؤتمرات تُلقي فيها البحوث الفكرية والاجتماعية والأخلاقية، ويتداول شؤون المسلمين وتعالج مشاكلهم لجمع كلمتهم، وتوحيد صفوفهم، ويتعارفون فيما بينهم على مجمل المشاكل ويتبادلون الرؤى في حلّها.

وبذلك يكون الحج رحلة روحية إلى الله تعالى، تهذب بها النفوس، وتطهر فيها القلوب، وتتقارب فيها وجهات النظر، وتُتلف القلوب، ولكن لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه المفاهيم لا تدركها إلّا قلوب رُفّت ونفوس زكّت.. وأمّا القلوب الملبدة بالأطماع، والجشع، والحقد، والحسد، فلا تدرك من ذلك شيئاً.